التحضير لحرب الشمال

اتضح خلال «البعثة الكبرى» أن الاتجاه الجنوبي للسياسة الخارجية الرُوسية قد استنفد، فالحرب ضد الإمبراطورية العثمانية تقترب من نهايتها، لكنها كانت مستمرة، وإن بحدة أقل من المطلوب عندما عاد بطرس من الخارج، وكانوا يبنون السُفن في فورونيج، وكان الأسطول البحري الحربي الرُوسي في طور الميلاد، وبالإضافة إلى الأشغال الأخرى اهتم القيصر بهذه الأمور، وراح يوجه المؤسسات العسكرية والدبلوماسية وبناء السُفن ويشارك فيها بنفسه مشاركة نشيطة.

وفي ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٦٩٨، بعد «التحقيق الكبير»، أي بعد الجولة الثانية من التحقيق في قضية القوات الخاصة، توجه إلى فورونيج، وكان العمل على قدم وساقٍ في أحواض بناء السُفن، ويدير كل الأعمال هنا فيودور أبراكسين المقرب إلى القيصر، وقد نُقل من مدينة أرخانجلسك الشمالية البعيدة إلى مدينة فورونيج الناعسة السَاكنة في أواسط روسيا، فتحولت إلى مركز صاخب لبناء السُفن، آلاف الرُوس، والكثير من الأجانب الذين وصلوا من مختلف بلدان أوربا، يمارسون قطع الأشجار، و نجارة الأخشاب، وبناء السُفن.

بعد أسبوع وصل بطرس إلى فورونيج، في البداية فرح لكل ما رآه، فأرسى أساس بناء سفينة جديدة، والتقط القيصر - النجار فأسه وشرع بالعمل.

إلا أن فرحته سرعان ما تعكرت، فقد بلغه نبأ فرار أعداد كبيرة من الأسطوات والفلاحين، تخلصًا من برد الخريف، وزمهرير الشتاء، والمجاعة والأمراض، وانعدام المأوى، وأمر القيصر بتعبئة عاملين آخرين، لكن إشاعات انتشرت في كل مكان بشأن الأعمال الشَّاقة التي يمارسها شغيلة بطرس في فورونيج وضواحيها، ففر الكثيرون إلى الغابات رافضين العمل في أحواض بناء السُفن وقطع الأشجار.

وتخلف إنجاز بناء السُفن عن المواعيد المقررة، زد على ذلك أن الأعمال جرت باستعجال، ولم تكن هناك خطة مدروسة لتخزين الاحتياطيات والمعدات وبناء السُفن نفسه، ولم يكن عدد الأسطوات المحنكين كافيًا، وفي كانون الأول (ديسمبر) تشكى بطرس قائلًا: «الحقيقة، لا معين لي هنا».

ولم يكن مظهر السُفن المبنية يبعث على السرور، فقد بنيت من أخشاب طرية، وبدلًا من المسامير الحديدية استخدمت المسامير الخشبية، وكانت هياكل السُفن، مع الأسف، أسوأ بكثير من تلك التي شاهدها بطرس في بريطانيا وهولندة، فإن متوننها وسطوحها مرتفعة جدًا أو طويلة جدًا، و«ضيقة للغاية»، مما أدى إلى تدهور خاصية هامة من خصائص السُفن؛ هي الاستقرار والثبات، وأمر بطرس بإعادة بناء بعض السُفن، وراح يتهدد ويتوعد ويلوم المقصرين، ورغم كل الصعاب والنواقص دشنت أولى سفن الأسطول الروسي، وشكل أبراكسين طواقم تلك السُفن من البحارة هذه المرة، وليس من الجنود كما في السابق، وسيقدم هذا الأسطول خدمة شأن الموانئ والمرافئ التي بناها بطرس على البحر الأسود، فهدفه هو الملاحة الحرة في هذا البحر، وعبر مضيقية إلى البحر الأبيض المتوسط، ومنه إلى الرحاب المائية التي تغسل سواحل أوربا من الغرب.

وبينت تجربة «البعثة الكبرى» أن من اللازم تغيير الوجهة الجنوبية للسياسة الخارجية، فالكفاح من أجل بحر البلطيق تمليه اعتبارات كثيرة، كان في مقدمتها ضرورة استعادة الأراضي الروسية العريقة عند الخليج الفنلندي، بالإضافة إلى الحاجات الموضوعية لتنمية اقتصاد البلاد، وتطوير سوقها، التي هي بأمس الحاجة إلى توسيع الصلات الخارجية، في حين كانت القوات السويدية تعترض هذا الطريق، كان الملك غوستاف أدولف قد أعلن في البرلمان عام ١٦١٧: «حرمت روسيا من منافذ البحر، وسيكون من الصعب عليها، والحمد لله، إن تذلل كل هذه العوائق»، ثم إن انعدام منافذ البحر، وعدم وجود أسطول ومرافئ، يهددان

بتوسع الدول البحرية الكبرى، وبضياع الاستقلال الوطني في المستقبل، وقد أدرك بطرس ذلك واتخذ إجراءات نشيطة عاجلة، عسكرية وبحرية ودبلوماسية وإدارية، فإن «ألعاب التسلية» المبكرة في البر والماء، ورحلته إلى الخارج، والمراسيم الكثيرة جدًا التي أصدرها في أعقاب تلك الرحلة، والتحويلات التي بدأت في الجهاز الإداري والجيش، وبناء أولى السُفن، والبحث عن الفلزات في الأورال، كل ذلك كان في الواقع يستهدف تقوية البلاد، وقدرتها الاقتصادية والعسكرية، وبالتالي حل المهمات الوطنية العاجلة: حماية سيادة روسيا في الصراع المرتقب بين القوى العالمية، وتأمين منافذ إلى البحر، وتوسيع الاتصالات مع أوربا، وتحويل البلاد إلى دولة عالمية.

وقد أشير مرارًا من زمان إلى أن التحويلات الأولى توالت الواحد أثر الآخر بدون نظام ظاهر ولا تعاقب أو منطق، وأساس كل تلك التحويلات هو إرادة القيصر وأهوائه وتعسفه، في هذه الأقوال شيء من الحقيقة، ففي أفعال بطرس نجد الاندفاع العاطفي، والحماس النفساني، والطاقة المنفلتة، ونفاد الصبر، والتحكم المطلق لقيصر لا رقيب عليه، كل ذلك صحيح، إلا أن المراسيم والأفعال الأولى بمجملها نابعة من رغبة مُلحة متعصبة حدت بهذا الإنسان العبقري طول حياته إلى تأمين منفعة روسيا، ومصالح الدولة في الحاضر والمستقبل.

عندما كان بطرس في فينا، وبلغة نبأ الانتفاضة الجديدة لافراد القوات الخاصة, فأسرع عائدًا الى روسيا، اختمرت في ذهنه فكرة حل أفواج تلك القوات, وهذا ما فعله جزئيًا (للقوات الخاصة في موسكو) في سياق التحقيقات المرغبة في تلك القضية، وبدلًا من تلك القوات بدأ بتشكيل أفواج الجيش النظامي، فقد نص مرسوم ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٦٩٩ على تشكيل ٣٠ فوجًا للمشاة من المجندين عن عدد معين من العوائل ومن الفلاحين والخدم، وكذلك من الأحرار (من غير الفلاحين الأقنان)، وكان ذلك «جيشًا نظاميًا مباشرًا» في رأي القيصر، وكان تشكيله بتلك الهمة والسرعة البالغة قد أدهش البعض، وآثار ريبة البعض الآخر، فإن

المقيم السويدي كنيبر مثلًا «تساءل عن تجنيد الأفواج النظامية بلهجة حادة: ما الداعي لتشكيل مثل هذه الأفواج النظامية المنقطعة النظير؟ وكيف تصونون السلام مع جميع الجيران والحال هذه؟، وردوا عليه بأن الدولة بعد حل القوات الخاصة لم تبق لديها أية مشاة، ولا يجوز لها أن تبقى بدون مشاة».

كان كنيبر مصيبًا في شعوره بالخطر الناجم عن استبدال القوات الخاصة بأفواج المشاة النظامية الجديدة، فمع أن الرُوس قالوا له إن التجنيد سببه «المخاوف من الحرب العثمانية» (فالحرب ضد تركيا كانت قائمة رسميا)، إلا أن مثل هذه الأقوال لم تضلل أحدًا، فإن السويد التي يمثلها هذا الرجل في روسيا تمتلك جيشًا نظاميًا ممتازًا في مقاييس ذاك الزمان، وفي الصدام المتوقع (بدأ الكلام في أوربا عن اختمار الحرب بين روسيا والسويد من فترة «البعثة الكبرى») يسهل على السويد، كما قال الساسة والجنرالات السويديون بحق، أن تواجه القوات الخاصة، وليس الوحدات النظامية التي تمتهن الشؤون العسكرية وتتخصص فيها وحدها، ولم تكن في روسيا حتى ذلك الحين أفواج نظامية في الواقع سوى فوجي بريوبراجينسكي، وسيميونوفسكي للحرس، وكذلك فوج ليفورت وفوج بوتيرسكي (بقيادة غوردون) المتدربين عسكريا، ولديهما خدمة نظامية دائمة، أما باقي الأفواج، الجنود والخيالة الخفيفة والثقيلة، فمع أنها منظمة على الطراز الأجنبي إلا أنها تمارس الخدمة أثناء الحملات فقط، وفي الفترات بين الحملات يطلق سراح أفرادها، فيعودون إلى منازلهم، ويمارسون الزراعة، أما جنود الأفواج النظامية فيجب أن يخدموا ويتدربوا على الدوام، وكان الجند الوقتيون يتحولون إلى عسكريين دائميين.

وجرى في بريوبراجينسكو، مقر القيصر المحبب، جمع المجندين وتشكيل الأفواج منهم، وأخذ بطرس يتفقدهم، ويتأكد بنفسه من صلاحهم للخدمة، كان القيصر قد كلف في عام ١٦٩٧ فيدي بدراسة تنظيم جيش الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وفي العام التالي وضع فيدي

«الميثاق العسكري» الذي عين المناصب العسكرية في القوات الروسية وفقًا لترتيبها في الجيش الإمبراطوري، كما تضمن قواعد تدريب الجنود، وفي صيف ١٦٩٩، وضع فيدي «التوصيات إلى الجنود»، و«لائحة العقوبات العسكرية»، وعندما كان بطرس في الجنوب درس باهتمام المواثيق، ومجموعة قوانين العقوبات الجنائية العسكرية، وأجرى تعديلات عليها.

وخصص لجنود الجيش الجديد راتب سنوي قدره ١١ روبلًا، بالإضافة إلى مؤونة من الأطعمة والنبيذ بنفس المقادير المطبقة في فوج بريوبراجينسكي.

وراح بطرس وأعوانه (الجنرال غولوفين، والجنرال فيدي، والعقيد الأمير ريبنين وغيرهم) يتابعون كيفية تدريب الجنود على القتال الصحيح، واستخدام البنادق، والغدارات، وقواعد رماية المفارز، وكذلك رماية الصف الخلفي بانبطاح الصف الأمامي، وكان التدريب معقدًا جدًا، فلكي يعبيء الجندي، مثلًا، الغدارة الصوانية، ويطلق النار منها يجب عليه أن يؤدي ١٦ مهمة، واستخدم القيصر في مجال التسليح مستحدثات من الجيش السويدي، كالحربة الشبيهة بالفأس، ولكنه- خلافا للعديد من الجيوش الأوربية التي كان جنودها يرتدون بزات زاهية ملونة- استخدم في جيشه بزة بسيطة ومريحة.

وكانت هناك صعوبات في هذه القضية التي طبقت باستعجال، بل وبصورة غير ناجحة تمامًا، كما بينت التجربة لاحقًا، كانت الأغلبية الساحقة من الأفواج الجديدة أفواج مشاة (٢٧ فوجا)، واثنان منها فقط للخيالة الخفيفة، وظلت الخيالة كالسابق تتكون من هجانة النبلاء القديمة، التي تخلت عنها أوربا الغربية من زمان، واتضح أن العديد من الضباط الأجانب الذين اختيروا كيفما اتفق لم يكونوا صالحين، وجرى استبدالهم بضباط رُوس على جناح السرعة، وكتب غولوفين إلى بطرس يقول: «الأفضل أن نعلمهم هم، وليس الأجانب».

وتشكلت من تلك الأفواج ثلاث فرق بقيادة غولوفين، وفيدي، وريبنين أنفسهم، وكان المقدمون وصغار الضباط من الأجانب فقط، من البولونين والسويديين وغيرهم، وفي سياق التدريب نحى الكثيرون منهم، واستبدلوا برجال البلاط، وبالمقربين إلى القيصر، ممن أوفدوا معه إلى الخارج ضمن «البعثة الكبرى»، وجرى تدريبهم بهمة ونشاط في ربيع وصيف ١٧٠٠، ومن الناحية الإدارية صار هذا الجيش خاضعًا للمصالح الثَّلاث الجديدة المذكورة أعلاه، المفوضية العامة، والمؤن العامة، والمدفعية العامة.

وانقضت تلك الأعوام الثلاثة العاصفة في مشاغل كثيرة، واستعجال بالغ، وتوتر لجميع القوى، وتم تحقيق الكثير في ميدان الاستمرار بالخبرات القديمة، ومبادرات الأسلاف، وفي ميدان الجديد الهام جدًا للأعمال المرتقبة، وكانت هناك أخطاء غير قليلة، وشكوك مبعثها الاستعجال المتشنج، والخوف من التأخر، وتفويت الفرصة، وكان بطرس يستعجل ويستحث أعوانه ونفسه والبلد كله، ويلاحظ الأخطاء ويصححها حيثما أمكن وحيثما يتسنى له ذلك، ويتشكى إلى أصدقائه، وإلى من يكاتبهم ويراسلهم ويعاقب المقصرين، ويشد آلة الدولة بمزيد من السرعة، ويرتقي ذرى جديدة، كان في فورونيج يبني السُفن، ويصحح الأخطاء في هياكلها، ويلوم الأسطوات وغيرهم من العاملين، ويشتاط غضبًا لاختلال النظام، والتسيب، والسرقات (التي كان لمسؤول بناء الأسطول بروتاسيف ضلع فيها)، وقد كتب من هناك الى فينيوس, أكثر مستشاريه تعلمًا واطلاعًا, وارفعهم منزلة في نظره, يعرض عليه تأملاته المريرة: «لا تزال سحابة الشكوك تحجب بصيرتنا... فليساعدنا الرب والقديس بولص» فيما سيأتي.

ولكن لا يليق بالقيصر ان يطيل الأكتئاب والتأمل الحزين، فيجب أداء الأعمال, بل يجب أداؤها بشكل أفضل وأسرع، وأهم ما يشغل باله القضايا الدبلوماسية والسياسة الخارجية، وطالما لم يوفق في الجنوب، فيجب أن ينقل مركز الثقل الى الشمال، روسيا لا تقوى على القتال في

جبهتين، ولكى تفرغ من قضايا الجنوب يجب توقيع الصُلح أو الهدنة, على الأقل, مع الباب العالي، أما المواقف في أوربا فهو معقد للغاية، ويقول كلوتشيفسكى أن الصراع ضد «الدول العدوانية الثلاث» فرنسا والسويد وتركيا، دفع البلدان الأخرى إلى الأئتلاف، وفى آخر القرن السَابع عشر ارتسمت ابعاد جديدة للتحالف بين الدول، فالحرب المختمرة من أجل التركة الأسبانية (١٧٠١-١٧١٣) حملت النمسا على التصالح مع الأستانة، وبذلت بريطانيا وهولندة قصارى الجهود لبلوغ هذا الصُلح، واضطرت روسيا إلى الأذعان لتحول الأحداث على هذا النوع, والأكثر من ذلك أنها اضطرت إلى المشاركة في مفاوضات الصُلح مع الباب العالي.

كان فينيوس, مراسل بطرس ومخبره الدائم (حيث يبلغه بالمعلومات المستقاة من الجرائد الأوروبية التي يطالعها دوما)، قد أخبره بالتحضير لمؤتمر في كارولوفيتسى بضواحي بلغراد، واجتمع ممثلو الإمبراطورية الرومانية المقدسة والبندقية وبولونيا وروسيا هناك، للتفاوض مع الباب العالي، أرسل بطرس ألى هناك فوزنيتسين الذي كان من موفدى «البعثة الكبرى»، وأحد مندوبيها الثلاثة إلى أوروبا في ١٦٩٧-١٦٩٨، وعلم القيصر من فينيوس أن كارل الثاني, ملك أسبانيا, حي يرزق, بينما كانت أوربا كلها تنتظر وفاته، لكن فرنسا أعدت جيشًا من١٠٠ألف شخص على أهبة الاستعداد تحوطًا للطوارئ، وكانت هذه المعلومات في منتهى الأهمية بالنسبة لبطرس, فعليها يتوقف البدء بالحرب ضد السويد أم لا، وكتب بطرس الى فينيوس من فورونيج عن النطاق الواسع لبناء السُفن، وعن انتظار الأخبار الطيبة التي يتوقع أن تضع حدًا للمجهول، والغموض في مسألة تركيا والسويد، ولم يقتصر«التحويل العظيم» على فورونيج وضواحيها, بل شمل روسيا كلها, نظامها الداخلي وسياستها الخارجية، وثقافتها، وحياتها المعيشية، ووافقت بداية التحويل تغير وجهة الجهود الدبلوماسية والعسكرية للدولة، وأدى إلى تعزيزها من جميع الوجوه، وإضافة إلى الإجراءات المذكورة أعلاه يجدر بنا أن نذكر إجراءات بطرس الحازمة في بناء الصناعة، ففي عام١٦٩٧، بدأ بأمرمنه بناء أفران الصهر، وورشات صب

المدافع في الأورال، وفي العام التالي أرسى في نيفيانسك أساس أول مصنع للتعدين، وبعد ثلاثة أعوام انتج أول كمية من الحديد الزهر، ثم ظهرت مانوفاتورات أخرى للتعدين، والجوخ، وأقمشة الأشرعة، والبارود، والحبال، والجلود وسواها، وبلغ عددها٤٠ مؤسسة في غضون بضع سنوات، بديهي أن الورشات الحرفية والنانوفاتورات كانت موجودة قبل بطرس، فهنا أيضًا وصل أعمال أسلافه، فطوال القرن السَابع عشر كانت هناك بضع عشرات من المانوفاتورات في مختلف الميادين (كانت تظهر وتحتجب، ثم تعمل من جديد)، وعملت عشرات الآلاف من الاجراء الأحرار في المانوفاتورات، والمصانع (انتاج الملح والبوتاس والاسماك وهلمجرا)، وفي النقل النهري وبالعربات (كان هناك حتى أواخر القرن المذكور أكثرمن ٢٠٠ ألف شغيل)، إلا أن بطرس الأكبر هيأ لتطور الصناعة نطاقًا لا مثيل له، وسار به شوطًا بعيدًا إلى الأمام، ولا تقتصرالقضية هنا على إرادة القيصر الشخصية، وطاقته ورغباته هو ومستشارية الرُوس والأجانب, لا تقتصر عليها وحدها, بل هى كذلك في سير الأمور الموضوعي وحاجات البلاد.

كل جهود بطرس التي استعرضناها في هذا الفصل والفصول السابقة، أعطت ثمارًا هى ثمارها الاولى غير ناضجة تمامًا في بعض الأحيان، ودعت الحاجة فيما بعد إلى تصحيح أمور كثيرة، وإكمالها وتغييرها من قبل القيصر وأعوانه من الرُوس والأجانب، وينبغي القول أن بطرس في هذة السنوات, وخصوصًا في السنوات التي أعقبتها لم يكن يستخدم التحويلات اعتمادًا عشوائيًا دون رؤية أو تفكير، لكننا نصادف أحيانًا في الدراسات الأجنبية الحديثة مزاعم تؤكد أن روسيا وبطرس مدينان بكل منجزاتهما و نجاحاتهما الى الاخصائيين الاجانب، العسكريين والاسطوات والاداريين، وذلك تطرف صرف، وهناك تطرف آخر يتجلى في الفكرة التي يؤيدها مثلًا المتعصبون الرُوس للنزعة الصقلبية في القرن التَاسع عشر، وبعض المتعصبين المحدثين، والقائلين بأن بطرس ألحق الضرر بروسيا، ولم ينفعها إطلاقًا بمحاكاته العبودية الهوجاء لكل ما هو أجنبي، فاولئك وهؤلاء يجانبون الصواب، فإن بطرس- رغم اندفاعاته

المتطرفة وأخطائه- قد تصرف بشكل صائب بل وحكيم عندما استدعى الأجانب، واستفاد من خبرتهم ومعارفهم، وقدّر رفيع التقدير أولئك الذين أخلصوا له ولروسيا في الخدمة والولاء، في آذار (مارس)١٦٩٩، عندما توفي صديقه المرح فرانس ليفورت، الذى أيده بفطنة وتأدب في كل مبادراته الجيدة، بكى بطرس بصدق ومرارة عند جثمانه، وحزن بنفس الصورة في تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ذاته، بعد وفاة الجنرال الباسل الصارم باتريك غوردون، وقد استحقا كلاهما حب واحترام بطرس، والعديد من الرُوس الآخرين, وتركا ذكرى كبيرة عاطرة، ويمكن قول الشئ ذاته عن بعض الاخصائيين الاجانب الآخرين ولو بقدر أقل، فان أحدًا, على ما يبدو, لم يحظ بثقة وحب بطرس، وميله الروحي، بقدرما يحظى به ليفورت وغوردون مع أن القيصر ظل كالسَابق يقدر الكثيرين، لكن بطرس عندما كان نصيراه المحبوبان على قيد الحياة، وبعد مماتهما لم يكن يتغاضى أبدًا عن النواقص الواضحة لدى الكثيرين من الأجانب من المغامرين والوصوليين، ولم يتوان في تقييم أعمالهم بصراحة، وتنحيتهم عن الأعمال الموكلة اليهم، ومعاقبتهم كما يفعل في معاملة أبناء جلدته.

أشار الأخصائي الفرنسي المعاصر المعروف في الشؤون الرُوسية البروفيسور روجيه بورتال بحق, فيما يخص النقطة موضوع البحث, إلى «أن روسيا سارت نحو التقدم ببطء وبصورة مستقلة، وكان دور الأجانب الذي لا ينفصل عن سياسة بطرس الأكبر يشكل قسطًا ثانويًا قيمًا جدًا، في بعض الأحيان عجَل في هذا التقدم لكنه لم يكن حاسمًا».

فالعامل الحاسم هو تطور روسيا، وعمل الشعب، ونشاط قادته السياسيين، والإداريين والعسكريين، وقد لعبت جهود القيصر الرُوسي دورًا كبيرًا في نهاية القرن السَابع عشر، فلا أحد يضاهيه من حيث تعمقه في إدراك كل جوانب حياة البلاد، وسياستها الداخلية والخارجية، وفي إدارة دفة سفينة الدولة في المجرى المطلوب، وتجلى تأثير ذلك إيجابا في كل شيء, بما فيه الشؤون الدولية والدبلوماسية الرُوسية التي قدر لها أن

تلعب دورًا كبيرًا في مصير البلاد فى السنوات الأخيرة من القرن السَّابع عشر.

كان بطرس في تلك السنوات مشغول البال خصوصًا بقضية صعبة لا تقبل التأجيل, وهى كيف ينهي الحرب ضد الأمبرطورية العثمانية في جو متغير دومًا، وغير ملائم لروسيا أبدًا، فالدول الغربية البارزة النمسا وفرنسا وبريطانيا وهولندة والسويد وغيرها - تستحث الأستانة على مواصلة الحرب ضد روسيا، وتسعى جميعها - وهى تنتظر حربًا من أجل اقتسام التركة الأسبانية- الى تأمين سلامة اجنحتها الشرقية، وتفرغ مواردها لاجل تلك الحرب، و (إلهاء)روسيا والإمبراطورية العثمانية في مقاتلة بعضهما البعض.

كان فوزنيتسين يناسب تمامًا الدور الذى اناطه به القيصر، فهو رجل محنك متمرس صلب العود، وبيروقراطي متزمت بدأ بمارس نشاطه الدبلوماسي في عهد أوردين ناشوكين، وكان قد أجرى في حينه مفاوضات في الأستانة, وعمل سنين عديدة مقيمًا دبلوماسيا في وارشو، وعندما أوفد كواحد من رؤساء «البعثة الكبرى» الثلاثة، اطلع عن كثب على طباع وتصرفات القيصر الشاب، وتفهم آراءه فيما يخص السياسة الخارجية، وراح ينفذ تكليفات القيصر بدقة بالغة، ويطبق نهجه الدبلوماسي دون قيد أو شرط.

وصل فوزنيتسين يأمرمن القصير الى كارلوفيتسي، كان في معطف طويل من فرو السمور الرمادي, وعلى رقبته قلادة من ست أو سبع لفَّات, وليس من لفَّة أو لفَّتين، وأصابعه مزينة بخواتم براقة, وقبعته مطعمة بالماس الثَّمين، كان بدينًا ضخمًا, رزينًا متكابرًا, متأنيًا صامدًا كالصخر، ويبدو أن هذا الدبلوماسي الرُوسي ترك لدى الحاضرين انطباع الوجيه الشرقي الذي لانهاية لثرائه، ومع ذلك كانت صلابة هذا الموظف الرُوسي الكبير تقترن مع مرزنة الدبلوماسي العصامي المحنك المكتسبة، فأن تواجده سنين طويلة في البلاطات الأجنبية، واتصالاته مع الحكام

والـوزراء عادت عليه بنفـع كبير، وكان بروكوبي فوزنيتسـين يجيد العثـور على مخرج من أصعب المواقف, ويبـدي في مثل هذه الأحوال سماحة عشـائرية ودهاءًا كبيرًا, فيمزج بين التحايل الشرقي، والشطارة الأوربية مع أن مظهره لا يدل على أصله الأوربي إلا من بعيد.

وكان بلـده في عزلة في مؤتمر كارلوفيتسـي، فقد هبّت ضد روسـيا الأسـتانة, وهذا في طبيعة الأشـياء, وكذلـك حلفاؤها بهـذا القدر أو ذاك النمسـا والبندقيـة وبولونيـا, والدولتـان الوسـيطتان بريطانيـا وهولندة، وينبغي أن نضيف إليها فرنسـا التي أسـندت الإمبراطوريـة العثمانية رغم عدم اشـتراكها في المؤتمر، ولما كانت فرنسا والنمسا وبريطانيا وهولندة قد اتفقوا بموجب اتفاقية١٦٩٨، على تقسـيم ممتلكات أسبانيا بعد وفاة كارل الثانـي، فـإن الحرب يمكن ألا تنشـب بينهـم، وكان على بطرس ودبلوماسـيه أن يأخـدوا بعـين الاعتبـار هذا الاحتمال, شـأن دسـائس من يسـمون بحلفاء روسـيا في الائتلاف المناهض للعثمانيين، وكان الجميع ـ «الأصدقاء» والأعداء والوسـطاء ـ يسـعون الى بلوغ أهدافهم على حسـاب الإمبراطوية العثمانية وروسيا.

ولم تعقد في كارلوفيتسـي جلسـات عامة لـكل مندوبي المؤتمر, بل جـرت مفاوضات ثنائية بـين ممثلي البـاب العالي من جهـة، وخصومهم من الائتلاف المناهض للعثمانيين من جهة أخرى.

وبغـض النظر عـن موقف روسـيا ومصالحها وقّعـت النَمسـا والبندقية مع الأسـتانة إتفاقيتين سـلميتين انفراديتين، وحصلتا على مكتسبات كبـيرة, حيـث كسـبت ترانسـلفانيا والمجـر العثمانيـة وسـلافونيا, وكسبت البندقية موريا في اليونان، ولم يرغب الباب العالي أبدًا في التنازل لروسـيا عـن الأراضى الـتي احتلتها هذه الأخيرة في أسـفل الـدون والدنيبر، ومنطقـتي آزوف والبحـر الأسـود، ولم يوفـق فوزنيتسـين في المرحلة الأولى، ولم تنفعـه معاطف السـمور التي اسـتلمها منه الدبلوماسـيون العثمانيون بارتياح، ولا تلميحاته الى احتمال انتصار الأسـتانة على النمسـا، إذا شنت هذه الأخيرة الحرب على فرنسا من أجل التركة الأسبانية.

كانت الإمبراطورية العثمانية التي استنزفتها الحرب وتكبدت فيها الهزيمة تلو الهزيمة تتعطش إلى السلام، وهذا أمر يفهمه الجميع تمام الفهم, ومنهم فوزنيتسين, ولذا راح يساوم بعنادٍ ولأمدٍ طويل علنًا بأنه بدأ بمطالب واقتراحات مبالغ فيها, بل وليست واقعية، ولم تنجح التلميحات الى حرب العثمانيين ضد النمسا, وهذا شيء طبيعي, ولذا تحرك فوزنيتسين من جديد مقترحًا على العثمانيين مشروع اتفاقية سلمية، فيها بنود لا يمكنهم قبولها طبعًا، فقد نص المشروع على تسليم آزوف، ومدن أسفل الدنيبر(كيزيكيرمين وغيرها)، إلى روسيا بالإضافة الى كيرتش، وحرية الملاحة للسفن الرُوسية في البحر الاسود وعبر مضيقيه, والاعتراف بالحماية الرُوسية للصقالبة المسيحيين المقيمين في الأراضى العثمانية، وتسليم «العتبات المقدسة» في فلسطين إلى روسيا، ويمكن الافتراض بأن الرُوس حتى قبل بطرس كانوا يفكرون في هذه الأمور و يحلمون بها، لكنها غير قابلة للتحقيق، لا آنذاك ولا الأن في عهد بطرس، ولم تتحول بعض هذه القضايا الى واقع عملي إلا في النصف الثاني من القرن الثَّامن عشر، وفى القرن التَّاسع عشر، أما الأن, فإن فوزنيتسين الذي يدرك بالطبع تمام الإدراك عدم واقعية أغلبية بنود المشروع قد تخلى في سياق المفاوضات السرية مع العثمانيين عن عدد من المطالب، وأقدم على تنازلات الغرض منها كسب تنازلات أخرى من الجانب المقابل، فقد تنازل عن كيرتش, بينما تنازل العثمانيون عن آزوف، لكن ذلك جرى ببطء وبصعوبة في مجادلات وملامات، وكان الجدال من أجل آزوف التي طالب العثمانيون في البداية بإعادتها مطالبة مسعورة، قد اتخذ أحيانًا أشكال المأساة والملهاة معًا، فالعثمانيون ذكروا أن القيصر الرُوسي ميخائيل, جد بطرس, سلَّم إلى الأستانة في١٦٤٢ آزوف، التي احتلها قوزاق الدون قبل ذلك بخمس سنوات، ورد فوزنيتسين بهدوء وطيبة نفس: (أعطونا, إذن, كيرتش واوتشاكوف).

وقد كتب الدبلوماسي الرُوسي عن ذلك كله في أحد تقاريره, واختتم وصف هذا المشهد بسذاجة وطيبة ظاهريين, ولكن بتهكم وانتصار خفيين:

ـ استمع المندوبون الأتراك الى ذلك، ودهشوا أشد الدهشة، وتغيرت ملامح وجوههم، وتبادلوا النظرات حيث احتقنت تلك الوجوه الى أقصى حد.

ويبدو أن ذلك تكـرر أكثر من مرة, وفى الحالات التي حضر المفاوضات فيها الوسطاء شاهد هؤلاء صدامات من هذا النوع؛ ذات مرة رفض فوزنيتسين تنفيذ مطلب مهين جديد تقدم به العثمانيون، فهو متمسك بمصالح روسيا تمسـكًا ثابتًا، ومهتـم أكبر الأهتمـام بالحفاظ على كرامـة قيصرها، وكان السـفير البريطانـي اللـورد باجيـت حاضـرًا, وهـو رجل رزيـن بارد الأعصاب، لكنه ـ على حد تعبير فوزنيتسين ـ ظل صامتًا محتقن الوجه تارة, ومصفرًا تارة أخرى, وأخيرًا فقد صبره، فصاح: (تجاوزتم كل الحدود).

ـ وعندما رأى فوزنيتسـين «وقاحته وعرقلته للقضية» طلب من السـفير الهولندي أن يتدخل:

ـ هدئ من روعه.

وأسـفرت المساومة العنيدة عن نجاح، وإن كان غير كامل، فاستطاع فوزنيتسـين أن يحتفظ بـآزوف دون أن يتنازل عن مدائـن الدنيبر، ولعلمه بـأن بطـرس يطالب مطالبـة حازمة بتوقيـع الصُلح مـع الباب العالي، سـار فوزنيتسـين بالأمـور إلى حد التهديـد بمواصلة الحـرب، ولم يكن ذلك من قبيـل الاعتداد بالنفـس، أو النزعة المغامرة، بل كان حسـابًا بعيد النظر، وتصلبًا هادفًا، وبالنتيجة خرج مظفرًا من معركة دبلوماسية عسيرة، فقد تنـازل العثمانيون ووافقوا على هدنة لمدة عامين حتى بدون تسـليم مدائن الدنيبر لهم، مع أن بطرس كان مستعدًا للموافقة على تسليمها.

وفي ١٤ كانـون الثَّاني (ينايـر) ١٦٩٩، وقعت الهدنة أخيرًا، وشـعر بطرس بالارتياح عندما اسـتلم في آخر الشـهر هذا النبأ الذي انتظره طويلًا، ونشَّط بطـرس المفاوضات مـع الذين يمكن أن يصبحوا حلفـاء في الحرب القادمة ضد السـويد، حاكـم براندينبورغ، وملـك بولونيا حاكم سكسـونيا، وملـك الدانمـرك، وقد تصرف بحـذر انطلاقًا من كون الجبهـة الجنوبية لم تحقق السـلام بعد، فالاتفاقية مع تركيا مجرد هدنـة، وكانت مباحثات

الصُلح والسَـلام لا تزال معلقة، وكان مندوبوا السويد يتابعون سير الأمور باهتمام وحذر.

وكان في بلاط موسـكو آنذاك السُـفراء والمقيمون: غفارينت ممثلًا عن الإمبراطورية الرومانية المقدسـة، وهينس عـن الدانمرك، وكنيبر عن السويد، وبوكي عن بولونيا، والجنرال كارلوفيتش ممثلًا عن أغسطس الثَّانـي، وكان هنـاك مقيمون آخرون رسميون وسـريون، وغالبًا ما يترك بطرس المراسـيم الموسـكوبية القديمة، و يجري بنفسـه المباحثـات معهم، ويشـرك فيها غولوفـين أحيانًا، و يجريها وحده أحيانًا أخـرى، وتقابل معهم سـرًا (في منـازل الوجهـاء، مثلًا) وفي حفلات الاسـتقبال الرسميـة، وعندما تسـتدعي الضـرورة يوافـق علـى مراسـيم احتفاليـة فخمـة يجـري فيهـا استعراض القوات، ومقابلة السُفراء، والاحتفاء بهم وإلقاء الخطب الرسمية، وهلم جرا.

علـى هـذه الصورة اسـتقبل مبعـوث براندينبورغ الفون برينسـين في كانـون الثاني (ينايـر) ١٦٩٩، وكان بطرس في بداية «البعثة الكبرى»، قد عقد مع حاكم براندينبـورغ فريدريك الثَّالث معاهدة صداقة واتفاقية شـفوية للتحالف ضد السـويد، وكان حاكم براندينبـورغ من المعجبين جدًا بالحفلات الفخمة، ولذا اسـتجاب له القيصر الرُوسي، حيث استعرضت الدُوريـة العسـكرية، والخيـول البيضـاء وغيرهـا أثنـاء اسـتقبال الفون برينسـين، لكن بطرس رفض كالسَـابق ادعاءات حاكـم براندينبورغ بلقب الملك.

كان بطـرس منـذ عدة سـنين يمـارس التحضـير الدبلوماسـي للحرب ضد السـويد من أجـل البلطيق، وكانـت الأمور تجري على ما يرام حسـب الظاهر، فالهدنة مع الباب العالي وُقّعت. والحرب الدَّاهمة في سـبيل التركة الأسبانية حرمت السويد من الحلفاء المرتقبين، وأخذت بعض بلدان البلطيق تبحث عن سبل للتحالف مع روسيا ضد السويد، وكانت الدانمرك أول تلك البلدان، فلديها أسباب كثيرة تجعلها تتذمر من جارتها الشمالية (السويد)،

فهي التي جعلتها منذ أواسط القرن السَّابع عشر تفقد حقها المطلق في السيطرة على مضيق زوند، كما أن جارتها الجنوبية دوقية شليزفيغ هولشتين التي ادعى ملك الدانمرك بملكيتها قد تحالفت مع السويد، وفي تلك الفترة اعتلى عرش السويد الملك كارل (شارل) الثَّاني عشر، البالغ الخامسة عشرة من العمر، وهو فتى أهوج كثير الفضائح، وكان بلاط الملك والنبلاء الارستقراطيون في عداء وتناحر، ومن أسباب تأزم الموقف تكرر القحط، وما يرتبط به من صعوبات اقتصادية، وبدأ الموقف ملائما لكوبنهاغن، فبعث في صيف ١٦٩٧ إلى موسكو رسولًا يمثل الملك، وكانت مهمته استمالة روسيا للتحالف مع الدانمرك، كان بطرس غائبًا، ولذا جرت مع المبعوث الدانمركي هينس مباحثات تمهيدية، وفي نهاية ذلك العام استلم القيصر في امستردام مذكرة تضمنت هذا الاقتراح، كان الموقف غامضًا، فأخبر موظفو مديرية العلاقات الخارجية هينس برغبة القيصر في أن ينتظر دعوته في موسكو، وعندما عاد بطرس إلى موسكو أبدى ميلًا واضحًا إلى المبعوث الدانمركي، وذات مرة جاءه إلى منزله، فقد ولد للمبعوث الدانمركي طفل، ونزولًا عند رغبة هينس غدا القيصر أشبينًا له، وحضر مراسيم التعميد، كما حضر مأدبة الغداء التي أقامها المبعوث بهذه المناسبة، واستغرق الغداء والأحاديث وقتًا طويلًا، لكن أحدًا لم يتطرق إلى التحالف المذكور، فإن بطرس لا يريد أن يعد بشيء، ما لم تصل أنباء سارة من كارلوفيتسي، لكنه وعد هينس بالتحدث في الموضوع في لقاء غير رسمي.

وتم هذا اللقاء في ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٦٩٨، في منزل المقيم الدانمركي بوتينانت فون روزينبوش الذي عاش في موسكو أمدًا طويلًا (وترك وصفًا مهمًا وقيمًا لانتفاضة ١٦٨٢ في موسكو)، وهو شخص يعرفه بطرس جيدًا، وردًا على التفاصيل التي بدأ هينس بإيرادها طلب منه القيصر أن يترك التفاصيل، و يحدثه بإيجاز عن جوهر الأمر، ويقدم مسودة المعاهدة لإجراء المفاوضات لاحقًا بعد دراستها، ولم يعرض بطرس خبر هذا اللقاء والحديث على معاونيه، ومنهم خاله ناريشكين الذي ظل

كالسَّابق من الناحية الرسمية مديرًا لدائرة السياسة الخارجية، لكنه لم يعد يلعب دورًا يستحق الذكر، وطلب بطرس من هينس ألا يكشف عن سر اللقاء، ولا يدخل في مفاوضات مع أحد سواه.

وطلب هينس تعليمات من حكومته، فمنحه الملك كريستيان الخامس صلاحية تقديم مشروع المعاهدة إلى بطرس بحيث يستطيع أن يجري عليها أية تعديلات بشرط أن يبقى على البند الخاص بالتعاون المتبادل بين الطرفين، وفي ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٦٩٩، أبلغ المبعوث القيصر باستعداده لتقديم مشروع المعاهدة، وسلَّمها في ٢ شباط (فبراير) في لقاء سري مماثل في منزل روزينبوش نفسه، اطَّلع بطرس على نص المعاهدة، وفي ١٩ شباط (فبراير) دعا هينس إلى فورونيج حيث كان القيصر يقلفط السُّفن، وكان يريد لهذه الوثيقة أن تكون أكثر اختصارًا ودقة، فهو يحب الإيجاز والوضوح، وقد وافق عمومًا على مضمونها، لكنه اقترح أن يدرج ضمنها بند جديد حول دخول روسيا الحرب بعد توقيع الصُّلح الدائم مع الأستانة وليس قبله.

واتخذ بطرس إجراءات أخرى في هذا الاتجاه وهو في فورونيج، ففي ٢ نيسان (أبريل) وقَّع مرسومًا بتعيين أوكراينتسيف الرجل المحنك الذي ترأس مديرية العلاقات الخارجية في حينه عشر سنين سفيرًا فوق العادة في الأستانة، لإجراء مفاوضات بشأن السَّلام الدائم مع الأستانة، وفي ختام الأعمال في كارلوفيتسي قدم فوزنيتسين إلى بطرس- فيما قدم- نصيحتين قيمتين هما إرسال شخص ذكي من غير الوجهاء إلى الأستانة لإجراء المفاوضات، على أن يذهب إلى هناك ليس برا كما هي العادة، بل بحرًا، على سفينة حربية لتبين روسيا للعدو أن لديها أسطولًا قادرًا على القتال في البحر الأسود، وتقبل القيصر كلتا التوصيتين، ووضع مع غولوفين في فورونيج نفسها أمرًا تفصيليًا، هو عبارة عن توجيه إلى أوكرايتنسيف الرجل الذكي لا ينحدر من الوجهاء، وجرى إعداد سفينة له تحمل اسم «القلعة»، زد على ذلك أن الأسطول الذي بنى في فورونيج،

وخُصص للحرب ضد الإمبراطورية العثمانية (وضعت خطة هذه الحرب من قبل بطرس عندما كان في امستردام)، كان يجب أن يرافق بأجمعه سفينة السَّفير حتى مدينة كيرتش، وبدلًا من العمليات الحربية ينبغي للأسطول أن يبدأ استعراضًا دبلوماسيًا.

وبعد أسبوع، في ٩ نيسان (أبريل) عين بطرس سفيرًا في هولندة هو أ. أ. ماتفييف أول ممثل دبلوماسي دائم لروسيا في الخارج، وقد خدم في أوربا حتى عام ١٧١٥، وهو ابن ماتفييف الذي ترأس مديرية العلاقات الخارجية في السنوات الأخيرة من حياة القيصر الكسي، وبفضل عناية الأب حصل ماتفييف -الأبن- على تعليم جيد، وأتقن لغات أجنبية، وربما ساعد على دراسة تلك اللغات نفي الأب مع ابنه سنين طويلة (من ١٦٧٦، بعد وفاة القيصر الكسي حتى آيار (مايو) ١٦٨٢ حيث اعتلى الصبي بطرس العرش)، وقد كلِّف بطرس هذا الرجل المتعلم- الذي غدا فيما بعد دبلوماسيًا بارزًا - بمهمات مسؤولة هي حث هولندة على العمل من أجل توقيع الصُلح بين روسيا والباب العالي، واستمالة هولندة إلى صف روسيا في الحرب من أجل البلطيق، أو الحيلولة دون تحالفها مع السَّويد في حالة إخفاق روسيا.

وفي ٢٧ نيسان (أبريل) أبحرت من فورونيج إلى آزوف عمارة من ١٢ سفنية كبيرة، ترافقها سفن مساعدة كثيرة، كل ربابنة السُفن أجانب، ما عدا ربانًا روسيًا واحدًا هو بطرس ميخائيلوف، أي القيصر نفسه، وعلى رأس العمارة الأميرال غولوفين، وكان القيصر في الواقع هو الذي يدير حملة كيرتش السلمية.

واستمر بطرس، مع غولوفين وفوزيتسين في تجهيز بعثة أوكراينتسيف، وكانت مديرية العلاقات الخارجية تطلع بطرس من موسكو على الأخبار الدولية، وقد شغلت باله خصوصًا «القضية الفرنسية»، أي احتمالات الحرب من أجل التركة الأسبانية، وصادق على وثيقتين هما: توجيهان للسفير، أحدهما: خاص بالبروتوكولات الرسمية، والآخر سري يستعرض بإيجاز ودقة كيفية إجراء المفاوضات مع العثمانيين، واستعرض التوجيه السَّري

أسئلة الجانب العثماني المحتملة وأجوبة الجانب الرُوسي، وأكد أن السفير هناك في الأستانة، يجب أن يعتمد على نفسه، و يجد مخرجًا «ويتصرف على هواه»، و«يفعل ما يراه لازمًا بشرط أن ينفذ المهمة»، وهلم جرا.

ووصلت العمارة إلى آزوف، وتوقفت هناك أمدًا طويلاً نسبيًا، لأن منسوب مياه الدون لم يكن عاليًا، وانتظروا حتى يرتفع مستوى المياه، وأخرج بطرس السُفن إلى البحر، وفي ٥ آب (أغسطس) توقفت العمارة في مرفأ كيرتش، وكتب الآميرال كرويس، المشارك في الحملة أو على الأصح الاستعراض الدبلوماسي عن مشاعر الدهشة والرعب التي استولت على العثمانيين المرابطين في كيرتش: «كان الرعب باديًا على وجوه الأتراك من هذه الزيارة غير المتوقعة لعمارة مسلحة بهذا القدر، ولم يصدق الأتراك إلا بعد جهد جهيد؛ بأن هذه السُفن بنيت في روسيا وأن الرُوس على متونها».

وهكذا كان ظهور الأسطول الرُوسي في البحر الأسود، الذي يعتبره العثمانيون عثمانيًا مفاجأة تامة غير مريحة لهم، وحاولوا إقناع الرُوس بالعدول عن إرسال أوكراينتسيف إلى الأستانة بحرًا، فالبحر مضطرب جدًا، والسفر برًا أسهل، لم يوافق بطرس على ذلك، فأذعن العثمانيون، لكنهم اشترطوا أن ترافق سفنهم سفينة «القلعة» الرُوسية، ولم يستعجلوا في تخصيص سفن لهذا الغرض، ظلوا يماطلون، ونفد صبر بطرس وغولوفين، فأعلن للأميرالاي حسان باشا قائلين: « سنرافق سفيرنا والحال هذه بعمارتنا كلها».

وأثر هذا القول في العثمانيين، وتوجهت «القلعة» ذات المدافع الـ ٤٦ إلى الأستانة، كما يسمى العثمانيون الأستانة البيزنطية التي استولوا عليها في عام ١٤٥٣، وعاد بطرس إلى فورونيج ومنها إلى موسكو.

وكانت تنتظر القيصر في العاصمة أعمال، ومشاغل جديدة، فمنذ شهر وصلت إلى موسكو بعثة سويدية بمناسبة اعتلاء كارل الثاني

عشر العرش، وعشية الحرب من أجل التركة الأسبانية كانت السويد راغبة جدًا في تأمين سلامة حدودها الشرقية، ولهذا الغرض كان على البعثة أن تحصل على تأكيدات لشروط معاهدة صلح كارديس ١٦٦١، التي استعرضت حصيلة أحداث الحرب الرُوسية السويدية ١٦٥٨-١٦٦١ الفاشلة بالنسبة لروسيا، فقد نصت المعاهدة على بقاء ساحل البلطيق في حوزة السويد.

ولم يكن تأكيد شروط صلح ١٦٦١ أمرًا مرغوبًا فيه بالنسبة لبطرس؛ لأن أهداف روسيا والسويد في مسألة البلطيق متعارضة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يكشف رفض التأكيد عن نوايا روسيا العدائية، وليس ذلك من الحكمة بشيء الآن، وقد عثر بطرس على مخرج، استقبل السويديين، (وعددهم ١٥٠ شخصا تقريبا) في حفاوة بالغة، حيث اصطفت العساكر على امتداد الطريق، وأُقيمت حفلة استقبال في صالة الطعام في الكريملين، صحيح أن بطرس لم يرتد ثياب قياصرة موسكو الثمينة بل اكتفى بقفطان بسيط، ولم يرغب في سماع خطبة المبعوث الطويلة، فلمح إلى أن الاختصار أفضل، وأثناء اللقاءات العملية السِتة دار الكلام عن مراسيم تأكيد المعاهدة، ورفض القيصر قسم اليمين على الإنجيل، وتقبيل الصليب، واتفق الطرفان على أن يتبادلا وثيقتي تأكيد معاهدة كارديس بشرط أن تتوجه بعثة روسية إلى أستوكهولم لهذا الغرض.

وفي الوقت ذاته أجرى بطرس مباحثات مع الجنرال كارلوفيتش الممثل الشخصي لأغسطس الثاني حاكم سكسونيا، والذي وصل سرًا باسم كيندلر، ولم تكن القضية بسيطة، فالذي حصل هو أن سكسونيا وحدها تحالفت مع روسيا ضد السويد، ومع أن أغسطس الثَّاني هو في الوقت ذاته ملك بولونيا فإن هذه الأخيرة «لم تحضر» المفاوضات مع كارلوفيتش، وكان يمثلها في موسكو بوكي صنيعة الارستقراطية البولونية الميالة إلى فرنسا والنمسا وتركيا، وكان بطرس يعامله ببرود سافر.

ولَّمح أغسطس الثَّاني إلى أن بولونيا ستنضم إلى التحالف الرُوسي السكسوني بعد قيامه، إلا أن ذلك كله بدا مشكوكًا فيه، زد على ذلك أن بطرس، وأعوانه فهموا اللعبة المشينة التي يلعبها ملك لم يصبح ملكًا بقدر كبير إلا بفضل القيصر الرُوسي، وقد استعار أغسطس الثَّاني في حساباته السياسة ريشة يوهان باتكول، المغامر الأوربي المعروف في ذاك الزمان، وكان هذا النبيل الليفلاندي في حينه قد عارض ما يسمى «بالمصادرة» التي طبقها كارل الحادي عشر ملك السويد، التي تعود لها ليفلانديا (ليفونيا)، وكان ذاك الملك قد أثار سخطًا شديدًا لدى الإقطاعيين الليفونيين، ومنهم باتكول، عندما قرر مصادرة الأراضي الأميرية التي استولوا عليها، وكان باتكول يتميز بطاقات هائلة وقابليات تنظيمية وخطابية مدهشة، فتزعم حركة الإقطاعيين ضد المصادرة، وصور هذه الحركة على أنها حركة وطنية، وأخيرًا حكم على هذا «الوطني» بالإعدام، ففر من بلاده، وراح يتنقل بين البلدان، و يجرب قواه في العلوم والآداب، وقبل الأحداث المذكورة أعلاه بعدة شهور، التحق بخدمة أغسطس الثاني حيث صار بإرادته ضابطًا برتبة مقدم، وتجنس بالجنسية السكسونية، وأغوى رئيسه الجديد باحتمال ضم ليفونيا إلى ممتلكاته بمساعدة روسيا القوية، فإن جيشها بالذات ينبغي- في رأي باتكول- أن يدحر السويد، حتى يمكن تقديم الثمرة المنشودة- ليفونيا- على مائدة أغسطس الثَّاني، وقد عرض كل هذه الأفكار في مذكرة قدمها إلى الملك، وصاغ بعض تلك الأفكار بشكل فريد وصريح جدًا:

- يجب استحصال التزام من القيصر بمساعدة جلالته بالمال وبالقوات، وخصوصًا المشاة القادرين جدًا على العمل في الخنادق، والموت بنيران العدو، وبذلك تُحقن دماء قوات صاحب الجلالة التي يمكن أن تستخدم لحماية ممرات التوصيل فقط.

ثم يقول بنفس اللهجة:

- ينبغي ربط يدي هذا الحليف القوي بشدة كيلا يلتهم على مرأى منا قطعة اللحم التي قلناها، كيلا يستولى على ليفلانديا.

وباختصار: فليمت الجنود الرُوس في سبيل ليفلانديا البولونية أو السكسونية فيما بعد، والأكثر من ذلك أن ليفلانديا يجب أن تكون «معقلا ضد السويد وموسكو» في المستقبل. ويستطيع بطرس بعد الانتصار على كارل الثّاني عشر أن يأخذ ـ حسبما تقول المذكرة ـ انجرماندلاندیا (وهي أراض على ساحل الخليج الفنلندي) وكاريليا، كما أن قواته بعد كسب ليفونيا وتسليمها إلى أغسطس، يجب أن ترابط شرقي خط نارفا بحيرة تشودسكوية.

هذا هو مستشار الملك البولوني، وبالمناسبة، فقد وافق شن طبقة.

وقد عرض كارلوفيتش أفكارهما، وأمانيهما المشتركة على بطرس، وأفاض كارلوفيتش في الحديث عن مشاعر «الحب الخالص والصداقة المتينة»، التي يكنها الملك للقيصر، وسلَّمه مذكرة مشحونة بالوعود، بأن الملك سيتحمل كل ثقل الحرب ضد السويديين، وكان يراد لذلك «أن يبعد أي خطر من جانب قوات» روسيا، إذا تحالفت مع سكسونيا، ومع بولونيا فيما بعد، وتغص بنفس هذا القدر من الاعتداد الطائش الفارغ مسودة معاهدة التحالف التي وضعها ـ في أغلب الظن ـ باتكول نفسه.

وأدرك بطرس نوايا أغسطس الثاني، ولكن لا حيلة في الأمر، فتلك هي القسمة والنصيب، طالما ليس هناك حليف آخر، لكن القيصر غير مستعجل، خلافًا للملك الذي أصر على بدء العمليات الحربية ضد السويد في كانون الأول (ديسمبر) ١٦٩٩، وكانت المذكرة تصر على ذلك:

ـ الشرط الأول في هذه القضية هو البدء الآن، أو عدم البدء إطلاقًا.

ووافق القيصر على نص المعاهدة، بل وحتى على البند الخاص بكاريليا وانجرمانلانديا (أي انتقالهما إلى روسيا بعد النصر)، وتسليم ثلاث مقاطعات (كورلانديا وليفلانديا وايستلانديا) إلى أغسطس الثاني، لكنه اشترط نفس الشرط الذي طرحه في المفاوضات مع الدانمرك: روسيا لن تبدأ الحرب إلا بعد توقيع معاهدة الصُلح مع الباب العالي، ووعد الملك بأن يشرك في الحرب بولونيا بالإضافة إلى سكسونيا،

ولم يكن عمومًا يبخل بالوعود السخية (تأمين سلامة القوات الروسية في انجرمانلانديا وكاريليا وحماية مصالح القيصر في البلدان الأوربية وهلجرا).

وكان أغسطس مستعجلًا جدًا، فأصدر أمرًا ببدء العمليات الحربية فورًا، ليغوي بطرس بتنفيذ الوعود حتى يفعل هذا الأخير الشيء ذاته، إلا أن القيصر أضاف إلى نص المعاهدة المادة الثّالثة عشرة بشأن ضرورة الصُلح مع العثمانيين بالنسبة لروسيا.

أجرى بطرس مباحثاته كارلوفيتش سرًا في بريوبراجينسكويه، وشارك فيها غولوفين والمترجم شافيروف، وهو بائع من اليهود المنتصرين أعجب به القيصر ذات مرة، وهو رجل ذكي، ومثقف، ومطلع على اللغات الأوربية، وبناء على اقتراح من بطرس حضر المباحثات المبعوث الدانمركي هينس، وفي تلك الأثناء كانت مديرية العلاقات الخارجية في موسكو تتباحث مع البعثة السويدية، كانت هذه اللعبة المزدوجة غالبًا ما تستخدم في الدبلوماسية الأوربية، ولذا طبق بطرس أساليب جربت قرونًا.

وفي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) وقع بطرس المعاهدة، وكان قد وقّعها أغسطس الثاني قبله، عندما أرسل كارلوفيتش إلى موسكو، وفي ٢٣ تشرين الثاني أبرمت المعاهدة الروسية الدانمركية التي وقعت بالأحرف الأولى في ٢١ نيسان (أبريل)، أي أن الإبرام جاء بعد تبادل النصين الموقعين، وكانت المعاهدتان أول وثيقتين في القانون الدولي وقعهما القيصر الروسي شخصيًا، فإن أسلاف بطرس لم يفعلوا ذلك مطلقًا، كانوا يكتفون بإبرام المعاهدات، أو تصديقها شفويا، حيث يعدون على رؤوس الأشهاد بالالتزام بها، ويقبلون الصليب، ويتركون للسفراء تذييلها بالتواقيع، وقد أخل بطرس بهذا التقليد السائر منذ عهد دولة كييف الروسية، ولما كان توقيع بطرس يعني الإبرام في الوقت ذاته، فقد حصل تبسيط في إجراءات إبرام المعاهدة، وارتفعت قيمتها.

وأسفر عن كلتا المعاهدتين تشكيل الحلف الشَّمالي بين روسيا والدانمرك وسكسونية في الحرب المرتقبة ضد السويد، لكن الصُلح مع الأستانة لم يتحقق بعد، وكان أوكراينتسيف يسعى إليه.

...في ٢٨ آب (أغسطس) ألقت السفينة الرُوسية «القلعة» مرساتها في مرفأ الأستانة مقابل سراي السُلطان، وقد دهش السُلطان نفسه ورعاياه، فلم يصدقوا بأن الرُوس يجيدون بناء مثل هذه السُفن، ويمخرون بها البحر الأسود، وتفضل سماحته بالصعود إلى متن سفينة الكفرة ليتأكد نفسه من أن هذا الحادث الخارق قد حدث بالفعل، واقتفى أثره آخرون من الوجهاء العثمانيين والدبلوماسيين الأجانب، وكانوا يتأوهون عجبًا واستغرابًا، وعندما أمر ربان «القلعة» بامبورغ بإطلاق المدافع ليلًا، أثارت طلقات التحية الرعب والهرج والمرج بين أهالي الأستانة، فقد ظنوا أن عمارة روسية كاملة وصلت بالإضافة إلى سفينة السفير.

لم تكن مهمة أوكراينتسيف يسيرة بسيطة، فهي أصعب حتى من مهمة فورنيتسين في كارلوفيتسي، وعندما وصل إلى الأستانة كان الوضع في أوربا متأزمًا، فلئن كانت بريطانيا وهولندة وفرنسا قد وقعت في أيلول (سبتمبر) ١٦٩٨، اتفاقية اقتسام التركة الأسبانية سلميا، فقد أعدت نفس تلك الدول في صيف العام التَّالي معاهدة جديدة حول الشيء ذاته، لأن ملك أسبانيا كارل الثَّاني توفى، وبدلًا من التوقعات السَلمية حلت حتمية الحرب، فإن أسبانيا غير راضية على المعاهدة الجديدة، لأنها لا تريد الإذعان لتقسيم ممتلكاتها، ورفضت النمسا عموما الألتزام بها، فقد كانت مع بريطانيا وهولندة تريد توريط الإمبراطورية العثمانية في الحرب، فالجميع يمدون أيديهم إلى الكعكة الكبيرة اللذيذة التي تركها ملك أسبانيا الراحل، وكانت تلك الدول تريد ـ شأن فرنسا ـ أن تشترك فيها السويد.

كل يريدها في معسكره، ولهذا الغرض وقَّع البلاط الفرنسي معاهدة مع البلاط السويدي في صيف ١٦٩٨، وفعلت بريطانيا وهولندة الشيء ذاته

في آيـار (مايو) من العام التالي، وفي كانون الثاني (يناير) أُبرمت المعاهدة، وأثارت الإشـاعات التي سرت بشـأن الحرب المحتملة بين السويد وروسيا قلق حـكام هذه الـدول، فطلبوا من دبلوماسـييهم الحيلولـة دون توقيع الصُلح الرُوسـي العثماني، واندلاع الحرب الرُوسـية السـويدية، فليواصل بطرس حربه ضد العثمانيين، وهو لا يقوى على القتال في جبهتين.

كان القيصـر يفهـم جيدًا أن روسـيا لا تقـوى على حربـين، فحاول هو وسـفيره ماتفييـف أن يتخذا الإجـراءات اللازمـة، طلبًا من ملـك بريطانيا وحاكم هولندة وملـك الدانمراك وملك بولونيا التوسـط في توقيع الصُلح مع الأسـتانة، ووافقت بريطانيا وهولندة على الوسـاطة لكنهما لم تفعلا شيئًا بالطبع، والأكثر من ذلك أن دبلوماسييهما في الأستانة أخذوا يألبون السُـلطان على القيصر، وهذا ما فعله أيضًا سـفير بولونيا، فقد اقترح على الباب العالي باسـم الإقطاعيين البولونيـين والليتوانيين الذين لا يحترمون ملكهـم، أن يتحالـف معهـم ضد روسـيا، وكانـوا من زمـان يركضون دومًـا وراء سـراب وآمال وهمية في اسـتعادة كييف، ومناطـق أوكرانيا الواقعـة علـى الضفة اليسـرى مـن الدنيبر التي خسـروها في عهـد بوغدان خميلنيتسـكي والكسـي ميخائيلوفيتش وبطرس الأكبر (في شبابه) (إبان الحرب الرُوسية البولونية ١٦٥٤-١٦٦٧ وبموجب صلح أندروسوفو ١٦٦٧، و«السَلام الدائم» ١٦٨٦)، وكان نفس هذا السفير قد أعلن للعثمانيين دون خوف أو وجل أن ملكًا مثل أغسـطس الثَّاني، صديق القيصر الرُوسـي، لا حاجة للإقطاعيين البولونيين به، وأنهم سيطيحون به من كل بد.

كان بطـرس وأعوانه قد تعودوا على مثل هذه الأحابيل الدبلوماسـية، ولم يفت في عضدهم لا رياء الدبلوماسـيين الغربيين، ولا دسـائس السـفير البولونـي، ولا الخطر الذي يتهدد أوكراينتسـيف دومًا في أن تطبق عليه سـراديب القصر ذي الأبراج السبعة بأمر من السُلطان الذي هو «ظل اللّه» في أرض الكبائر، استمر أوكراينتسيف في المفاوضات سبعة شهور، وكان قـد تسـلح بالصبر مسـبقًا، وتزود بالنقـود، وفراء السـمور، وغـير ذلك من «الحجج الدامغة» لغواية الوجهاء والدبلوماسيين العثمانيين.

وفي ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٦٩٩ قدّم سفير بطرس مذكرة إلى العثمانيين، تضمنت ١٦ مادة أهم بنودها: توقيع الصُلح مع احتفاظ الطرفين المتحاربين بما يسيطران عليه حتى الأن, وحرية الملاحة للسُفن الرُوسية في البحر الأسود، وتوقف روسيا عن دفع الجزية الى خان القرم (وهى في الحقيقة بقية من تقاليد قديمة تعود جذورها الى عصر تبعية روسيا للتتر والمغول من أواسط القرن الثَّالث عشر حتى القرن الخامس عشر), وتوقف غزوات عساكر القرم على الأطراف الجنوبية لروسيا, وتبادل الأسر, واعادة العتبات المقدسة في أُورشليم القدس إلى حوزة, الكنيسة الارثوذكسية الإغريقية، وتخليصها من سيطرة الكاثوليك.

وكما هى العادة وضعت المطالب الرُوسية «باحتياطي» يزيد على المطلوب, نظرًا لاحتمال المساومة والجدل والتنازلات من جانب الطرفين، ورفض العثمانيون رأسًا البند الخاص بالعتبات المقدسة, ولم يجادلهم اوكراينتسيف كثيرًا في هذا الموضوع، وردوا عليه بالشئ ذاته فيما يخص حرية الملاحة في في البحر الأسود , وأعلنوا له باسم السُلطان الكريم الحكيم:

ـالباب العالي العثمانى يصون البحر الأسود كفتاة طاهرة عذراء لا يحق لأحد أن يمُسها.

ولم يكن الرُوس بالطبع يرفضون ودّ تلك الفتاة العذراء؛ لكنهم تنازلوا هذه المرة أيضًا، فلا بد من التنازل عن شيء؛ لا سيما، وأن الأسطول الرُوسي ليس لديه في البحر الأسود لا موانئ ومرافئ ولا مداخل، ومنافذ الى الموانئ، صحيح أن القوات الرُوسية استولت على كازيكيرمين، وثلاث مدائن أخرى في أسفل الدنيبر، وبالاعتماد عليها يمكن السيطرة على مصب الدنيبر، وبالتالي على منفذ مرغوب فيه الى البحر الأسود، لكن العثمانيين تعنتوا ورفضوا بصورة قاطعة، وكان أهون الشرَّين بالنسبة لهم هو الاذعان لضياع مدينة آزوف فقط، أما الطريق الى البحر الأسود فان كيرتش مفتاحه، ولم يكن العثمانيون راغبيين اطلاقًا في التنازل عن مدائن الدنيبر.

واتسمت الخلافات أحيانًا بطابع فاجع شديد, بلغ حد القطيعة، واستخدم اوكراينتسيف كل ما في جعبته من دهاء وخبرة دبلوماسية، لكن الطرف الآخر أصر وعاند، وفي شباط (فبراير) ١٧٠٠، صارت إشاعات عن استعدادات عثمانية لشنّ العمليات الحربية ضد روسيا، ووصل بطرس الى فورنيج من جديد لينظم شؤون الأسطول، وجرى الشيء ذاته, بأمر منه, في آزوف، وظهر مبعوثوه في استوكهولهم ليؤكدوا للملك أن روسيا تطمح إلى السلم مع السويد.

ومع ذلك صارت الأمور في الآستانه صوب الصلح؛ تركيا لم تكن راغبة في مواصلة الحرب؛ لأن استعراض الأسطول الرُوسي أثر فيها, وهذا ما كان بطرس يأمل فيه، والأهم أن بطرس البعيد النظر أمر بالتنازل عن المدائن الدنيبر؛ لأنه لم يكن يأمل في انتصار كبير جدي في البحر الأسود، واتفق الطرفان على طمر تلك المدائن الصغيرة، وبقاء المنطقة الواقعة بين سهب زابوروجيه ومصب الدنيبر خالية، وبذلك عرضت روسيا بوضوح أنها لن تفكر في الحصول على منفذ البحر الأسود، ومقابل هذا التنازل احتفظت روسيا بآزوف، والمُدن المبنية على سواحل بحر آزوف (تاغانروغ وميوس وبافلوفسك)، ورفضت روسيا تقديم الجزية الى خان القرم, وحصل رعاياها على حق الحجيج الى العتبات المقدسة في فلسطين، ووقعت هدنة لمدة ٣٠ عامًا، ولم تكن صلحًا، وأهم ما حصل عليه بطرس هو إطلاق يديه للعمل في الشمال، وذلك مكسب استراتيجي اتسم بأهمية بالغة كما بيّن الزمن.

وفى تلك الأثناء كان بطرس ينتظر تنفيذ وعود أغسطس الثّاني،ومستشاريه باتكول وكارلوفيتش، وقد أبلغوا بطرس بأنهم أعدوا خطة لاقتحام ريغا واحتلالها، وكما هو المتوقع اتضح أن تلك الخُطة وليدة الخيال الجامح والصلف والوقاحه والنفعية التافهة والغدر والخيانة مصالح الحلفاء، وبدأ ذلك عندما ترك الجنرال فليمينغ القائد العام للجيش السكسوني, جيشه وعاد إلى منزله ليتزوج، وكان سيده أغسطس

الثَّاني, كعادته دومًا مشغول جدًا بشؤونه الخاصة، فإن مجونه خلق أساطير كثيرة تتحدث إحداها عن ٣٦٥ طفلًا غير شرعي تركهم الملك الفاسق، وبعد أن تزوج فليمينغ، تفضل وعاد إلى القوات، وتحرك بها صوب ريغا، وعلى مقربة احتل قلعة كوبيرشانتش الصغيرة جدًا، وبذلك انتهت انتصارت العساكر السكسونية المظفرة وقادتها، وغضب بطرس على المكشوف, وقال في حديث مع هينس: هل يجوز استحسان تصرف ملك بولونيا، إذا كان قد بقي في سكسونيا يتسلى مع الغواني، ويغرق في الملذات بدلًا من حضور عملية على هذا القدر من الأهمية؟

وما كان بوسع السَّفير الدنمركي أن يفنِّد هذه الحجة الدامغة، وعندما شجب القيصر تصرف أغسطس الثَّاني لم يخف قلقه:

ـ أخشى أن يوقع الملك صلحًا انفراديًا، ويترك حلفاءه بعد أن يورطهم في الحرب، فلا موجب لتوقيع المعاهدات واستنهاض الحلفاء دون أداء المطلوب.

ورغم أن بطرس كان يدرك الثمن الحقيقي لأقوال ونوايا أغسطس الثَّاني، فقد ظل آسفًا. وبعد قليل عرف أن السكسونيين احتلوا قلعة ديناميوندي الواقعة على دفينا الغربي, أسفل ريغا, عند منفذ بحر البلطيق، كان هذا الخبر أفضل من غيره، وفي أواخر حزيران(يونيو) وصل الملك أخيرًا الى القوات قرب ريغا، وترك غوانيه الحسان كئيبات في سكسونيا، وأخفق حصار المدينة، فالقوات قليلة، ولم ترغب بولونيا في دخول الحرب, فهي تطمح إلى استعادة كييف، وليس إلى القتال من أجل ريغا، ولم تلحق القنابل السكسونية أي ضرر بالمدينة، وفي أيلول(سبتمبر) غضب الملك، ووعد مهددًا أنه يقوى على إطلاق نيران المدافع، إلا أن الدهاة من أهالي ريغا يعرفون مع من يتعاملون, فأعطوه رشوة بـ١٠٥مليون تالر، استلم الملك الرشوة دون تردد , ورفع الحصار عن ريغا، وسحب قواته بعيدًا عنها, رغم الوعود التي قطعها مؤخرًا للقيصر بأنه سيتحمل العبء الرئيس من الحرب على كتفيه المتينتين.

وما حدث فيما بعد أدهى وأمرّ، فالدانمرك الحليفة التي كانت حسب الظاهر أكثر جدية، تقوضت كبيت من ورق بعد أول هبة من الريح، صحيح أن قواتها أحرزت بعض النجاح في هولشتين التي فر حاكمها إلى الشمال، إلى حليفتها السويد، وكان الملك السويدي الشاب العربيد المغوار، قد أنزل في الحال فيلقا من ١٥ ألف شخص، واقترب من كوبنهاغن، ودعم الإنزال الأسطولان البريطاني والهولندي، فاستسلمت الدانمرك، وفي ٨ آب (اغسطس) ١٧٠٠ خرجت من الحلف الشمالي بموجب صُلح ترافيندال (قرب لوبيك)، والتزامت باحترام استقلال حاكم هولشتين، ودفع غرامة له بمبلغ ٢٦٠ الف تالر، وكانت اتفاقية ترافيندال نهاية لعزلة السويد، وثغرة في الحلف الشمالي، ولم يعد الأسطول الدانمركي، وهو أسطول كبير نسبيًا، بقادر على دعم الحلفاء، كما كان ينتظر منه بطرس، وعندما بطش كارل الثّاني عشر بأحد خصومه صار بوسعه أن يوجه قواته ضد الآخرين، إلى شرق البلطيق، وهذا ما أقدم عليه بالفعل.

كان مصير الدانمرك قد أعاد حاكم براندينبورغ الى رشده، وكان هذا الأخير قد أكد لبطرس مشاعر الود الخالص، ونعته «بالصديق والأخ والحليف» في ١٦٩٧، عندما تقابل مع «بطرس ميخائيلوف» الموفد ضمن طلبة «البعثة الكبرى»، ودعاه بنفسه الى التحالف ضد السويد؛ أما الأن، بعد صلح ترافيندال، فقد خفَ حماسه، وأعلن لمبعوث بطرس الأمير تروبيتسكوي الذي وصل إلى برلين في صيف ١٧٠٠، وقال صراحة بعد تبادل المجاملات إن ما حصل للدانمرك يثير قلقة ويحيره جدًا...

وأخفق ماتفييف هو الآخر في مهمته في الولايات الهولندية، حيث كان يتوخى الحصول على مساعدة من هولندة وبريطانيا، أو الحيلولة دون مساعدتهما لملك السويد، فقد حددا موقفهما دون لبس، والتزما جانب السويد، صحيح أن السفير ماتفييف كان يبعث بانتظام أخبارا عما يجري في أوربا، ومن ذلك رياء أغسطس الثّاني، ونشاط أوكراينتسيف في الآستانة، واتضح أن ملك بولونيا يفكر في صلح انفرادي مع كارل الثّاني عشر.

ومن جديد اضطر بطرس إلى اتخاذ القرارات في جو غامض للغاية تلبدت فيه الغيوم، حلف الشمال بدأ وكأنه يحتضر، ولم يكن بطرس يعرف على وجه التحديد ماذا يجري في الآستانة؟ وهل سيتمكن أوكراينتسيف من الحيلولة دون استئناف العمليات الحربية في الجنوب؟

إلا أن القيصر لا ينساق للذعر والشكوك، فالاستعدادت جارية على قدم وساق للحرب في البلطيق، ومن أجل البلطيق، لكنها لحد الآن حرب بريةٌ بالنسبة لروسيا، فإن روسيا لا تمتلك أسطولًا هنا، ولم يكن سهلًا إعداد كل مستلزمات القتال ضد الجيش السويدي الممتاز، ووفقًا للخطة التي وضعها بطرس ومستشاروه ينبغي للجيش الروسي أن يتوجه صوب نارفا ونوتيبورغ (مدينة أوريشيك الزوسية العريقة)، وهما قلعتان سويديتان على نهري ناروفا ونيفا، وأرسل بطرس إلى القلعتين فاسيلي كورتشمين أحد ضباط فوج بريوبراجينسكي، وكان كورتشمين قد حصل على التعليم الهندسي في الخارج، وهو يفهم في شؤون التحصينات، وفي ٢ آذار (مارس) ١٧٠٠، كتب بطرس إلى غولوفين بخصوص إرسال كورتشمين إلى نارفا في البداية بحجة شراء مدافع سويدية للروس، ثم إلى نوتيبورغ:

ـ ليزر أوريشيك إذا وجد سببًا لذلك، وإذا تعذرت زيارتها فعلى مقربة منها على الأقل ثمة مكان مهم جدًا: رافد من بحيرة لادوجسكوية، والرجل، على ما يبدو، ذكي يحافظ على الأسرار، والمهم ألا يعرف كنيبر بالزيارة، فهو يدري أن كورتشمين من المتعلمين.

وجرى تدريب المجندين الجدد على جناح السرعة، وولد على مرأى من الجميع جيش جديد ترك ـ كما يبدو ـ انطباعًا لا بأس به في أنظار شهود العيان، حتى أن السفير الدانمركي هينس أعجب بدربة الجنود:

ـ الأفواج الجديدة رائعة، وهي جيدة بنفس القدر في التدريبات وفي الاستعراضات.

وقد نعت هذا السفير المدفعية الروسية بأنها «نموذجية» و«أفضل مدفعية في العالم»، كما نعت المشاة «بخيرة القوات الملتزمة بأقصى درجات الانضباط»، ولعل بطرس قد سمع مثل هذا التقييم مرارًا، وشعر بالارتياح، وكان ينتظر بفارغ الصبر أخبار الآستانة، ويتحرق شوقًا إلى تحريك قواته ضد السويديين، والانضمام إلى الحلفاء:

ـ أنا رجل يمكن الاعتماد على أقواله، ولن ألجأ إلى الإطناب، فإن حلفائي سيرون عمليًا كيف أنفذ التزاماتي، وأقوم بأكثر مما أنا ملزم بالقيام به.

كان بطرس مفعمًا بالتوقعات، والآمال البهيجة، وأخيرًا، في ٨ آب (أغسطس) ١٧٠٠، وصله الخبر الذي طال انتظاره، فقد تمّ توقيع الاتفاقية مع الآستانة، ولم تعد روسيا مقيدة اليدين في الجنوب، وفي اليوم التالي أعلنت الحرب على السويد «بسبب الجور السويدي الكثير»، ومنه الإهانة البشعة التي صدرت عن السويديين في ١٦٩٧، أثناء تواجد «البعثة الكبرى» في ريغا «لجلالة القيصر نفسه»، مع أن القيصر الروسي لا يعتبر رسميًا من موفدي البعثة.

وكان هذا التبرير اعترافًا بفضل الدبلوماسية الموسكوبية القديمة، وغيظها بسبب الإهانات الفعلية والوهمية للقيصر، والتطاول على كرامته، وبالتالي على كرامة روسيا، وكان دبلوماسيو البلدان الأخرى في ذاك الزمان يهتمون بهذه الأمور اهتمامًا كبيرًا.

وفي ٢٢ آب (أغسطس) تحرك الجيش الروسي في حملته، وبدأت حرب الشمال، كتب المؤرخ كلوتشيفسكي الذي لا يحب بطرس مستخفًا به، فيما يخص نتائج عمليته الجنوبية: «وجد القيصر نفسه في موقف حرج» فالأسطول الذي بُني بذلك العذاب والحرمان «ظل يتعفن في مرافئ آزوف»، وأخفق القيصر في تثبيت قدميه في القرم، وأهملت القناة التي بدأوا بحفرها بأمر من بطرس بين الفولغا والدون، وتأجل كذلك كل ما يتعلق

«بالمسالة الشرقية» (تأمين السلامة من غزوات القرم وتوقعات مسيحي البلقان)، وحول بطرس أنظاره بسرعة من الجنوب صوب الشمال، «فالموقف العابر الجديد في أوربا نقله، ككرة اللعب، من مصب الدون إلى ناروفا ونيفا، حيث لم يكن لديه أي شيء جاهز، وبعد أن صرف وقتًا طويلًا في الاستعداد ليكون من بحارة البحر الأسود، مع كل ما كسبه من معارف في الملاحة في بيرياسلافل، والبحر الأبيض، وبريطانيا وهولندة، اضطر إلى خوض حرب برية سنين طويلة ليصل إلى بحر جديد غريب».

هذا المؤرخ يبالغ كثيرًا بالطبع، ولا يشاطر القيصر في إجراءاته المحمومة، وبحثه التواق، ولا يقدِّر تلك الإجراءات حق قدرها، ومع ذلك فهو لا يجانب الحقيقة كثيرًا، فإن بطرس نفسه سرعان ما عاد إلى رشده من آماله الوردية أو الوردية الباهتة على أقل تقدير في ربيع وصيف ١٧٠٠، عندما أسرع إلى القتال متحمسًا كما يفعل الشباب، وهو يأمل في انتصارات سريعة باهرة، واتضح أن نارفا ليست آزوف، ولا كازيكيرمين، لكنه آنذاك لم يكن يعرف شيئًا عن النتائج المترتبة على تصرفاته، كان مندفعًا يفكر في المخططات ليستنشق بملء رئتيه هواء البلطيق المالح...